الانهيار الديمغرافي في بلاد المغرب من القرن 11م إلى القرن 15م

بقلـــــم: محمد الطالبي
تعريب: محمد الغرايب

(يضع محمد الطالبي، من خلال هذه الدراسة، أصبعه على بعض مكامن الخلل والإعاقة التي منعت من تطور بلاد المغرب في العصر الوسيط. ولعل ما أعطى هذه الدراسة قيمتها دربة الكاتب في تعامله الصارم مع فرع من التاريخ لايزال الباحثون في العالم العربي يجهلونه عموما، ونظرا لخلاصاته العلمية، وتعميما للفائدة إرتأينا ترجمتها من الفرنسية() إلى العربية، وقفينا ببعض الملاحظات الهامشية التي فرضتها طبيعة المصادر المترجمة التي إعتمدها الكاتب.) المترجم.

بالرغم من وجود بعض الدراسات التي تستحق التنويه لم يكن، في نيتي طبعا، أن استوفي في بعض السطور موضوعا أكثر شساعة، فضلا عن كونه موضوعا بكرا. كما أنني لن أتوقف أيضا عند مشاكل الديمغرافيا التاريخية لحضارة لا توفر أي إحصاء أو تعداد للسكان، ولا أية سجلات خورية أو سجلات خاصة بالوفيات ولا تقدم أية وثيقة من أرشيف كيفما كانت طبيعتها، فالإسلام لا يعرف الإكليروس ولاممارسة الرهبنة.

إن مصادرنا حصرا هي عبارة عن روايات: روايات جغرافيين ورحالة من جهة، وأخبارا من جهة أخرى وهي على الخصوص أخبار حدثية، فالأرقام فيها نادرة، وفي الغالب قليلة المصداقية. ومع ذلك، فلو عرفنا كيف نحد من طموحاتنا وعرفنا كيف نتخلى عن تتبع الجزئيات

*) صدرت هذه الدراسة بدفاتر تونس، الفصل الأول والثاني، المجلد 25، 1977. (المترجم)

والتدقيقات، لتمكننا من الحصول من هذه المصادر على معلومات أكيدة وذات أهمية بالغة في ما يتعلق بالخطوط الكبرى للتطور الديموغرافي للمغرب الوسيط، فهي ظاهرة بنيوية لم يشر إلى أهميتها لا بالنسبة لمجموع الأحداث ولا بالنسبة للمنحى الذي اتخذه تاريخ البلاد.

ولتسهيل الأبحاث اللاحقة، نفكر في إصدار قريب لكشاف كرونولوجي يتعلق بأسماء أماكن بلاد المغرب من خلال أعمال الجغرافيين والرحالة في العصر الوسيط. هذا الكشاف الذي سيكون مصمما على هيأة جداول تمكننا من معرفة سريعة- وطبعا مع مراعاة تقص جد صارم- بالتطور المديني لبلاد المغرب وذلك بتتبع ميلاد واختفاء التجمعات السكانية. وسيكون هذا الكشاف صالحا كأساس لسلسلة من الأبحاث حول تطور مدن بلاد المغرب منذ الفتح العربي إلى نهاية العصر الوسيط. ويتعلق الأمر هنا بمتابعة وتعميق بحث كان المأسوف عليه بول-لويس كامبوزا (Paul –Louiz Cambuzat)، قد وضع فيه أول معلم. فالتنقيب في مواقع التجمعات الدائلة يمكن أن يوفر معلومات موثوقة ويسمح بتحقيقات مفيدة[1]. إن دراسة قطاعية حول القبائل، وهي دراسة تم استخدامها جزئيا، تعتبر أيضا ذات فائدة قصوى. ولا يمكن أن نتقدم جيدا إلا عندما تنجز مجموع هذه الأعمال عوض التخبط في تاريخ ساكنة بلاد المغرب، ونحن على اقتناع- من خلال هذه الأعمال – أن هذا التاريخ بمقدوره أن يوضح كثيرا من الغموض، ويساهم في إلقاء المزيد من الضوء على التطور الذي ابتدأ مع الفترة الاستعمارية.

وفي انتظار إنجاز هذه الدراسات، ومراعاة لما يمكن أن يطرح من تصحيحات لاحقة، بدا لنا من الضروري أن نستخرج، انطلاقا من أعمال الجغرافيين أساسا، الرسم البياني العام للتطور الديمغرافي لبلاد المغرب

[1] إن الحفريات التي تمت بطريقة متقنة على يد د.و.س روبير وعلى يد ديفيس بمدينة أوداغوشت هي نموذج نوعي، ولا يمكن إلا أن نأسف على عدم إنهاء الحفريات التي كانت قد أجريت بموقع سجلماسة.

الوسيط، ولنقل إن هذا الرسم، هو بالتحديد، تخطـيط عـام معـاكس لـذلك التخطيط الذي عرفته أوربا في نفس الفترة، فهو كطابع غائر.

1. بلاد المغرب حتى منتصف القرن X / IV : الانفجار الديموغرافي ونمو الشبكة المدينية

وصف اليعقوبي[2]، في القرن 3هـ/9م، بلاد قمودة – والتـي هـي اليوم، رغم الكثير من الجهود قد تركت للسهوب – بأنهـا "**منطقـة مليئـة بالمدن والحصون**". فالساحل إذن، كان "**ظلا واحدا من الزياتين والأشـجار والكروم والقرى المتصلة**". وكان سهل متيجة منطقة واسعة، تمت زراعتـه جيدا فضم عددا من المدن والقلاع المزدهرة، زينـت، أثناءهـا، المغـرب الأوسط حوالي عشر عواصم لإمارات علوية تم إحداثها[3] في زمـن غيـر بعيد. أما بالنسبة لفاس فكانت قد أصبحت "**مدينة رائعة، على نهر تدور بـه ثلاثمائة من الأرحاء، وعلى امتداد جوانبه أحدقت به قرى متصلة وحقـول وأراضي مزروعة**" . ولنتذكر هذه اللوحة عندما نعرض للقرن XVI.

هل القرن X / IV في جو مطبوع بالعنف، وبشكل مفـاجئ انتهـى التوازن الذي ساد مدة طويلة بعـد الانفجـار الخـارجي العـارم أواسـط القرنVIII/II. كانت النزعة الإستعمارية للفاطميين في حاجة إلـى المـال، فأثقلوا كاهل الناس بالضرائب، وحلموا بالتوسع فكانت حملاتهم شرقا وغربا. وإذا أضفنا كل هذا إلى الخراب الذي أحدثته انتفاضـة صـاحب الحمـار (332-336هـ/943-947م)، فإننا سنفهم بكل سهولة أن هذا المشهد لـم يكـن ليتغيـر. فابـن حوقـل الـذي زار بـلاد المغـرب عقـب انتفاضـة صاحـب الحمـار وصف آثار هذا التخريب.ورغم ذلك فإن هذا التاجر المشرقي قد استرعت انتباهه كثافة السكان أيضا واتساع المحارث وامتداد شبكة التمدين فكتب ما يلـي: "**وأمـا مـا حـاذى أرض إفريقيـة**

---

[2] **البلدان**، ترجمة: G. WIET القاهرة، 1937، صص 211-213-224.

[3] انظر: M. Tabli; **L'Emirat Aghlabide**, Paris, 1966, p. 567

إلى آخر أعمال طنجة عن مرحلة إلى عشر مراحل، فزائد وناقص فبلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه.[4] "(*) وفي ختامه لوصف بلاد المغرب يقدم ابن حوقل لائحة غير نهائية بأسماء القبائل البربرية لا يقل عددها عن مائتي اسم لأن البربر "**لا يلحق عددهم ولا يوقف على آخرهم.**[5]" حسب تقديره.

لم يكن المقدسي أقل إعجابا من ابن حوقل وهو الآخر مشرقي، جاء بعده بقليل، وكان قد أتم مؤلفه سنة 375هـ/985م، فكتب يصف بلاد المغرب بأنها "**إقليم بهي كبير سري كثيرالمدن والقرى عجيب الخصائص والرخاء.**[6]" لكن وقتها كانت بلاد المغرب مع الأسف قد فقدت بريقها، وأصبح مجالها "**كثير المفاوز**"، يواجه المسافر فيها قطرا "**صعب المسالك كثير المهالك.**" لقد كان الزيريون وقتها في أوج قوتهم، يخوضون ضد

4- (Ibn Hawqel; Configuration de la terre. J.H. Kramers et G. Wiet, Paris, 1964, I. 8.

(*) اعتمد الأستاذ محمد الطالبي، الترجمة المثبتة في هامش (1) وهي ترجمة لم يلتزم صاحباها كثيرا بمحتوى النص الأصلي لذلك جاء تعبيرها مخلا بالمعنى إلى حد ما، فارتأينا تعميما للفائدة أن نثبت في الهامش الفقرات الفرنسية المعتمدة من قبل الأستاذ محمد الطالبي واليكم الفقرة الخاصة بهامش (1):

Sur la bande qui s'étend entre l'Ifriquia et l'extrémité des cantons de Tanger, sur une largeur qui varie entre une et dix journées de marche. On rencontre des lieux habités et des villes dont les cantons agricoles se touchent, ainsi que des champs cultivés, des domaines ruraux, des points d'eau ». (المترجم)

5 (**صورة الأرض**، بيروت، 1979 ص 97 و101-103 , **Surat al -Ard** Beyrouth, S.d pp. 97 et

6 (**Ahsan al taqasim** , éd.Trad. partielle, Ch. Pellat sous le titre: **Description de l'Occident Musulman du IV/X siècle,** Alger, 1950, p2/3 :

و في ما يلي ترجمته الفرنسية للنص:

«est une province admirable, étendue et magnifique qui possède en grand nombre ville et village, et offre des ressources et une abondance étonnante…»

أعدائهم الزناتيين حربا طاحنة مصحوبة بالنهب والتخريب، وبهذا نفهم لماذا كانت المسالك صعبة والمهالك كثيرة والمفاوز عديدة.

إن الوصف الذي كتبه محمد بن يوسف الوراق (ت363هـ/4-973م) والذي أورده البكري في مسالكه بعد انتهائه من تأليفها سنة 460هـ/8-1067م، يؤكد الانطباعات السابقة. فالمدن الخربة ظاهرة للعيان، لكن البلاد في عمومها لا تزال متمدنة وساكنتها أكثر كثافة. يقول البكري عن ضفاف سبو بلسان الوراق، أنها ذات "**قرى كثيرة.**" وكان الجواز من فاس إلى مكناس يتم عبر "**قرى متصلة وعمارات غير منفصلة وأنهار كثيرة.**[7](**)" وفي بداية القرن 16 لن يجد فيها حنا ليون الإفريقي غير خرائب، تبرز وسطها فاس المدينة الملاذ منعزلة ووحيدة. ولنكتف بهذا المثال فهو بدون شك ليس المثال الوحيد.

إن دراسة العواصم الكبيرة خلال القرن 3هـ/9م، والتي يمكن أن نستحضرها على عجل، تبين لنا، بالإضافة إلى ذلك، أن الشبكة الحضرية لم تكن مشدودة إلى بعضها البعض وحسب- مشدودة إلى حد أن القرى، كما رأينا كانت تتلامس- بل أن المدن وقتها كانت بالغة الكبر. لقد استطعنا أن نثبت أن القيروان الأغلبية كانت ولا ريب ذات ساكنة تعد، بمئات الآلاف. وتخبرنا المصادر أن سجلماسة لم تكن أقل من عاصمة الأغالبة في شيء. أما أغمات فكانت مدينة تجارية ضخمة كثيرة السكان. وربما بلغت تاهرت وفاس مائة ألف نفس إن لم تكونا قد تجاوزتاها. زد على ذلك أن المدن كانت تتضخم باستمرار، فتطفح خارج أسوارها وتكبر بضاحية أو عدة ضواحي، فيكف البدو عن الترحال، إنهم هم من بنوا سجلماسة على أطراف

---

[7]) وفي ما يلي النص المترجم: Bakri; MAsalik, De slane sous le titre l'afrique Septentrionale, paris 1965, 141/2/1-272
une suite non interrompue de villages, de terres: ruiseaux. Cultivées et de

(**) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت.، ص 132. (المترجم).

الصحراء. وسنرى لاحقا حركة معاكسة لما ذكرنا. ولتثبيت الأفكارووضع بعض العلامات فلنستحضر في الأخير أوربا الميروفنجية والكارولنجية التي لم يكن بعد بها من المدن من تجاوزت ساكنتها العشرة آلاف. وفي وقت لاحق ، مع نهاية القرن XIII، عندما ستصبح ميلان مدينة جميلة وغنية بساكنة تبلغ 200.000 نفس داخل قارة تعيش أوج انطلاقتها التمدينية[8] والاقتصادية فإن مدن بلاد المغرب هي من ستبتلى بالقلة في الأنفس والأموال، وهذا ما يوضح التطور المتشعب الذي أشرنا إليه من قبل.

2. من منعطف منتصف القرنIV هـ/Xم إلى منتصف القرن Vهـ / XIم

لقد سجلنا من قبل أن جغرافيي القرن IV هـ /X م أضافوا إلى المناطق المضيئة التي أشاروا إليها بقعا من الظل، فكتب ابن حوقل عند مروره بقابس بأن أرباضها كانت قد تركت للنيران[9]. وأن سفاقس كانت ميدانا لاضطرابات خطيرة[10]، وأن المهدية قد ساءت أعمالها جدا[11]، وأن القسم الأكبر من مليلة كان قد هدمه القائد الفاطمي جوهر[12]، وأن أنكور كانت أكثر ازدهارا في السابق[13] وأن دار ملول كانت مدينة قديمة[14]، وأن

---

8) انظر R. Lopez; **Naissance de l'Europe**, Paris, 1962 p.266-270

9) **صورة الأرض**، ص.72.

10) ن.م، ص. 73 ، لا يوجد شيء في هذا المعنى عند ابن حوقل في حديثه عن سفاقس، لكن يبدو أن الأستاذ الطالبي نقل سهوا معلومات عن المهدية ونسبها لسفاقس، لأن صاحب **صورة الأرض** تحدث عنهما معا في نفس الصفحة التي جاءت في الهامش(2). (المترجم).

11) **ن.م.**، ص 73.

12) ن.م.، ص 78 لا توجد أية إشارة لمليلة في ص 78 التي جاءت في إحالة الأستاذ الطالبي، لكن ذكرها سيأتي في ص الموالية أي 79، أي بعد الحديث عن أرجاكوك. وبالفعل كان ابن حوقل قد تكلم في هذه ص عن جوهر واكتساحه لمدينة مليلة لكنه لم يشر إلى تهديمه لغالبية مبانيها، كما جاء عند الأستاذ الطالبي (المترجم).

13) ن.م.، ص 79.

14) ن.م.، ص 85.

طبنة كانت كبيرة[15]، وأن "**هاز قرية كانت قديمة عظيمة فخربت وهي اليوم في وقتنا هذا مفازة[16]**"، وربضها مقفر تماما، وأن تاهرت في حالة مزرية[17]... والقائمة طويلة. أما الدرجيني (ت. بعد 650هـ/1252) فينسب إلى صاحب الحمار تخريب 30.000 من القرى ولا يقارنه في شدته إلا بقساوة نافع بن الأزرق. حقيقة إنها مبالغة واضحة لكنها ذات مغزى تترجم انطباعا معينا وتوضح الفرق بين عصرين.

إن التراجع المديني والديموغرافي الذي لم يكن قد ابتدأ إلا مع القرن IVهـ /X م، و الذي لم يفعل شيئا غير تسريع وثيرته بقوة على امتداد العقود، بعد أن استطاع على الأقل المرور خفية وسط صخب الانتصارات التي كانت على طريقة بيروس(*).

ففي الوقت الذي بدا فيه القرن IVهـ /X م بالنسبة لأوربا كقرن دشنت فيه مقدمات نهضتها الأولى، يبدو أن بلاد المغرب قد اتخذت فيه منعطفها السيئ.

بدأ القرن Vهـ /XI م أيضا بشكل أكثر سوءا، فقد دشنته مجاعة وطاعون سنة 395هـ/1005م، وانتشرت هاتان الآفتان بصورة لا سابق لهما. فقد ترك لنا الرقيق، وهو شاهد عيان وجدي ومطلع، صورة أشد هولا، فالخدمات توقفت، والموتى يدفنون كل يوم بالمئات في حفرجماعية، ولم

---

15) ن.م.، ص 85، لا يقول ابن حوقل عن طبنة ما أورده الأستاذ الطالبي (المترجم).

16) ن.م.، ص 85، أورده الأستاذ الطالبي مايلي: "Haz est de nos jours en ruine" في حين أن الصواب ما نقل أعلاه (المترجم).

17) ن.م.، ص 93.

(*) ملك إبير Epire (272 ق.م – 275 ق.م) وهو ابن أسيد Eacide، مك إبير والجد الأعلى للأسكندر الأكبر، حار إلى جانب دمتريوس الأول Démetrios 1er في إبسوس Ipsos (301 ق.م)، كان أحسن قائد عسكري في زمانه، لكنه كان رجل سياسة ضعيف، تردد باستمرار بين غزو إيطاليا وتوسيع إمبراطوريته نحو الشرق. اضطر بعد خروجه من مقدونيا إلى الإنقلاب على إيطاليا وأحرز فيها على الرومان إنتصارات مدوية أهمها: هيركلي (280 ق.م) واسكولوم (279 ق.م) وهما من الإنتصارات الأشد دموية ومنهما جاء المثل: الإنتصار على الطريقة البيروسية. (المترجم).

يتوقف الفارون من المرعوبين إلا عند وصولهم صقلية، فخلت القيروان، ولم تكن، بالطبع، هي الوحيدة التي عرفت مثل هذا المصير.

لم يزد انعدام الدواء الناجع مع مرور الزمن الهوة إلاعمقا، فجاءت الأخطاء السياسية لتجهز على ما تبقى، ولذلك يمكن القبول بسهولة بأن بلاد المغرب كانت، أواسط القرن V هـ /XI، قد أصبحت بكل تأكيد منطقة ذات ضغط ديمغرافي جد ضعيف، وتحديدا في الفترة التي سجل فيها هذا الضغط ارتفاعا متزايدا في أوربا. وهل من المدهش في شيء أن تعرف بلاد المغرب، في هذه الظروف، هبوب الرياح عليها من كل صوب حاملة معها في البداية بني هلال من جهة (444هـ/1052م) والمرابطين من جهة أخرى (447هـ/6-1055)، وبعدهما بقليل جاء دور نورمان صقلية.

أما في ما يخص رياح الاسترداد، وإن كانت قد توقفت مؤقتا، بعد أن أخذت معها وإلى الأبد طليطلة، فلأنها اصطدمت بالهبوب الآتي من الصحراء، فكل هذه الأحداث الكبرى المنظورة تحت إضاءة ديمغرافية، تبدو لنا أنها كانت نتائج قبل أن تصبح بدورها أسبابا. ومن حينها أصبحت بلاد المغرب، بالقوة بعد أن انخفض ضغطها، منطقة للعاصفة. وهو بالطبع أمر لا يحل المشكل، ومن هنا وحتى نهاية العصر الوسيط فإن الهوة لم تزد إلا اتساعا.

3. أعماق الهوة:

انتهت الأعداد البشرية التي جاء بها المرابطون بسرعة، فجلبوا المسيحيين ليحتفظوا بالمغرب الأقصى على غرار ما فعله أمراء شبه الجزيرة الإيطالية في السابق عندما جلبوا المرتزقة من إفريقية خلال القرنIII هـ/IX م. وفي منتصف القرن VIهـ /XII م ، نزل سكان جبل مصمودة بدورهم إلى السهل ليملأوا ما به من فراغ وكانت الظروف ملائمة. فابتدأ عصر من العظمة هو عصر الموحدين. لكن هذه العظمة كانت تخفي واقعا ديمغرافيا واجتماعيا باهتا، فاستدعت بلاد المغرب آخر احتياطاتها

البشرية، لأن المجالات كانت واسعة جداً وعمارتها فقيرة. وسرعان ما عجز نهائيا هذا الطمي الخصب المنحدر من الجبل والمنتشر في سرعته الأولى نحو إفريقية والأندلس عن تعويض هذا النقص في الإحتياطات. حقيقة إن هناك بعض المدن التي كانت لا تزال مظاهرها خادعة. فمراكش كانت آنذاك مدينة كبيرة، كما كانت بعض المناطق، مأهولة نسبيا كسهل تادلة وذات زراعة كثيفة، لكن قائمة المدن الخربة لم تتوقف عن استقبال أسماء مدن أخرى عمها الخراب.

عم الخراب، بشكل نهائي، مناطق بأكملها، كما كان حال تامسنا التي حكمها بنو طريف (124-543هـ/742-1148م)[18]، فأسكن فيها الموحدون قبائل بدوية من بني هلال ، لكن المشكل ظل قائما. وهكذا في الوقت الذي كانت فيه أوربا تستصلح أراضيها لاعالة ساكنة تزداد نموا، كانت بلاد المغرب تعرف نقصا متزايدا في ساكنتها وفقرا في أراضيها. فالإدريسي الذي كتب عمله في منتصف القرن VI هـ /XII م، تحدث في الغالب عن الماضي وأعطى حصيلة، وطريقته في الكتابة كانت قد أصبحت خلدونية، فتحول الفعل المساعد "**كان**"، تحت قلمه، إلى لازمة تزين التباين بين الماضي والحاضر، وللإدريسي إحساس واضح جدا بالانهيار الديموغرافي والمديني لبلاد المغرب. فقد كتب عن كتامة أنه لم يبق منها: "**في وقت تأليفنا لهذا الكتاب إلا نحو أربعة آلاف رجل، وكانوا قبل ذلك عددا كثيرا وقبائل وشعوبا.**"[19] هذا فقط ما تبقى من أولئك الذين وجدوا في أنفسهم، خلال القرن IIIهـ /IX م، الطاقة البشرية القادرة على تغيير

---

18 انظر: M. Talbi; Hérésie, acculturation et nationalisme des berbères bargawata dans **Actes du premier congrès d'Etudes des cultures Méditerranennes d'influence arabo-berbère**, Alger, 1973, pp. 217-233.

19 **Nuzha,** éd , partielle H, Peres sous le titre **Description de l'Afrique Septentrionale et Saharienne**, Alger, 1957, p. 70

مجرى تاريخ إفريقية. حقيقة، إن حالتهم خاصة نوعا ما. فبعيدا عن الحروب التي قصمت ظهرهم، كان على جزء منهم أن ينتقل مع الفاطميين إلى مصر. ولم تكن كبرى القبائل الأخرى مثل صنهاجة وزناتة على الخصوص بأحسن حالا من كتامة، خاصة فيما يتعلق بضريبة الدم. وبهذا نفهم جيدا لماذا، إذن، لم يستطع الصرح الموحدي الثقيل جدا أن يدوم طويلا معتمدا على قاعدة ضعيفة.

ازدادت هذه اللوحة قتامة خلال القرن VII هـ /XIII م،وفي نهاية هذا القرن وجد العبدري- على طريقه جنوب المغرب، وهو متجه نحو المشرق- بلاد مغرب في الحضيض، تركت لنهب أعراب الداخل، وتعيش في قلق من نزول القراصنة المسيحيين على سواحلها. كانت تونس الوحيدة من بين مدن أخرى صادفها في طريقه من تستحق اسم مدينة. تحولت تونس إلى ملجأ، فتوسعت وكبرت بفعل الهجرة القروية ونزوح الأندلسيين المطرودين بسبب حروب الاسترداد.

خيبت القيروان أمله؛ فمن ماضيها الزاهر لم تحتفظ هذه الحاضرة إلا بجامعها الكبير ومقابرها الواسعة الآهلة بأموات مشهورين. استعاد العبدري التاريخ البعيد فاكتشف دوكة، وتفكر في آثارها التي هي رمز "**ضخامة مملكتها في غابر الأزمان**[*]"، في مواجهة فقر الحاضر، حاضر بلاد "**شديدة الإهمال**" و"**عمرانها خراب**[**]".

يتابع الزمن سيره، وعلى امتداد مصادرنا قد نبحث عن مؤشر ما لنقطة استئناف لكن دون جدوى. فالبلاء، على ما يبدو ازداد تفاقما، ففي منتصف القرن VIIIهـ /XIV م، ضرب الطاعون الجارف بقوة، فأهلك، حسب المصادر، نصف السكان[20] الذين كان عددهم قد تناقص أصلا. ونعلم

---

[*]انظر الإدريسي، المغرب العربي، من **كتاب نزهة المشتاق**، تحقيق: محمد حاج صيدوق، Publisud، 1983، ص.126 (المترجم).

[**]العبدري، رحلة العبدري المسماة **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1968، ص 82. (المترجم)،

ن.م.، ص 82 (المترجم)، ن.م.، (المترجم).

عن طريق ما أنجز في أوربا من دراسات عن نفس الآفة، أن التقويم لم يكن مبالغا فيه. فابن خلدون الذي عاش الكارثة كتب ما يلي: "**وقطر المغرب وإن كان في القديم دون افريقية... بعد أن كان عمرانه متصلا من البحر الرومي إلى بلاد السودان في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة.وهي اليوم كلها أو أكثرها قفار وخلاء وصحاري، إلا ما هو منها بسيف البحر أو ما يقارب من التلول.**[21]

تتابعت طواعين أخرى، ولأسباب عديدة لم تزدد الوضعية مع الزمن إلا تبارى. إن الانطباع الذي ينبثق في بداية القرن XVI، من قراءة حنا ليون الإفريقي- والذي أكده لاحقا لويس دو مارمول بعد بضعة عقود[22]- هو أن المدن الخربة تماما، أو الشبه مهمولة هي أكثر عددا من تلك التي احتفظت بطابع مدينة حقيقية. فمراكش[23] وبجاية[24] خلا ثلثاهما من السكان. ولم يكن في تونس من تجرأ على المغامرة بالخروج خلف الأسوار[25]، خوفا

---

20) أبو الفضل شهاب الدين أحمد علي بن حجر العسقلاني (773-852 هـ /1372-1449 م)، **بذل الماعون في فوائد الطاعون**، مخطوط بخزانة الوثائق بتونس 00569-F 735-775.

21) **المقدمة**، بيروت 1956، ص.661. وفي ما يلي النص بالفرنسية: «Aujourd'hui le Maghreb qui fut jadis entièrement urbanisé de la Méditérranée au pays des noirs en profondeur, et de l'extrême Sus à Barqa en longueur, est en totalité ou en majorité occupé par des steppes, des espaces vides et des régions désertiques , à l'exception du rivage de la mer et de la bande limitrophe.» (المترجم)

22) في كتابه: **Descripcion general de Africa**, Grenade 1573 Trad. Nicola Perrot, Paris , 1667, 3 vol.

23) **Description de l'Afrique**, Trad .A Epaulard, Paris, 1956 1.-101-2

24 انظر الترجمة العربية: **وصف افريقيا**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج 1، ص 128 (المترجم).

25) ن. م.، I، ص: 383

من الأعراب البدو. وفي باجة[26] لم يكن هناك ما يكفي من الفلاحين لحراثة الأراضي المتخلى عنها نهبا للأعراب، ولم يكن مأهولا من بيوت سوسة[27] إلا خمسها، كما أن أكبر التجمعات لم تتجاوز قط عشرة آلاف كانون، وغالبا ما كان الفقر باديا للعيان حتى أن حنا ليون الإفريقي اعترف أنه لم يتمالك نفسه من البكاء أمام كثير من الحالات المحزنة[28].

ورغم وجود بعض الاستثناءات التي أخفت إلى حد الآن، لوحة يغلب عليها طابع الحزن عموما، فإن بلاد المغرب قد بلغت بكل تأكيد خلال القرن XVIم، أبعد نقطة في هوة الفقر[29]، وأدنى نسبة في ساكنتها. ففي ما يتعلق بالمغرب الأقصى، فإن د. نوان D. Noin قدر بحق، سكانه بقوله: "**يبدو من المشكوك فيه أن الساكنة المدينية قد تجاوزت في المجموع مائتي ألف.**" ولم يكن ف. بروديل أكثر تفاؤلا عندما حصر سكان بلاد الغرب، في عهد فليب الثاني، في ما لا يزيد عن اثنتي أو ثلاثة ملايين نفس.

تستحق حركة المنحنى الديمغرافي لبلاد المغرب، بالطبع تفسيرا لها، فقد بلغ هذا المنحى ذروته خلال القرنين X-IX/ IV-III، لينحدر بعدها عمليا وباستمرار حتى العصور الحديثة. إننا لن نقوم بهذا التفسير هنا فقد وضعنا منذ البداية نصب أعيننا، كهدف، تبيان مختلف فترات المنحى الديمغرافي لبلاد المغرب خلال العصر الوسيط، آملين أن يتم تناول التطور الديمغرافي لبلاد المغرب الوسيط من عدة وجوه: فأكيدا إلى جانب الوجه السياسي، يجب تناوله من الزاوية السوسيو-اقتصادية والصحية، وربما أيضا من الزاوية المناخية. أحدث التدخل الفاطمي قطيعة مع توازن لم يتم تداركه أبدا. فالحروب والاضطرابات التي طال أمدها، قد عملت لغير صالح النمو

---

26) ن.م.، II، ص 374.

27) ن.م.، II، ص. 1- 390.

28) ن. م.، II ، ص. 1. 161.

29) في مقدمة كتابه، **وصف افريقيا**. وبهم الموضوعية التاريخية ترك ليون الأفريقي، وهو يطمئننا، لوحة لا يمكن الركون إليها.

الديمغرافي وذلك بعدم زحزحة أو إزالة بشكل جذري أهـم العناصـر مـن ساحات الحروب الداخلية أو الخارجية، كما لا يجب التقليل من أهمية تـأثير وسائل منع الحمل أو الإجهاض التي خصصت للمحافظة على القيمة التجارية للجواري[30]. وفضلا عن ذلك، فإن نفاذ احتياطي العبيد الذين ساهموا بشكل واسع في الانطلاقة الاقتصادية للقرن IIIهـ/ IXم لم يتم تعويضه بأي تقدم تقني على عكس ما حدث في أوربا منذ بداية القرن Xم. إن اعتدال المنـاخ الذي ساد خلال القرن X في أوربا، كانت له تأثيرات سـلبية علـى بـلاد المغرب. فأي تغيير مهما كان ضعيفا في هذا الميدان وداخل بلد حيث يوجد مشكل الماء بصفة دائمة يمكن في الحقيقة أن تكون له عواقب جد وخيمة.

إن القيام بدراسة علمية للنبات، يمكن، بكل تأكيد، أن تأتي فـي هـذا المجال، بأجوبة حاسمة. وهل من الغرابة في شيء، داخل هذا السـياق مـن الحروب والنقص في اليد العاملة، والركود التقني، أن تتعقد هـذه العوامـل جميعا بفعل جفاف أكثر حدة من ذي قبل وأن تبدأ المجاعات والأوبئة محدثة الخراب بشكل متكرر، وفصدا شبه دوري؟

عمت الفوضى الجبايات، وغدت وطأتها أشد وقعا في محاولة لتعويض النقص الحاصل في حجم الضرائب، لكن هذه الجبايات لم تعمل فـي نهايـة الأمر إلا على خلخلة الاقتصاد. وبفعل تسلط البداوة علـى الـبلاد انقلبـت الأوضاع الاجتماعية بشكل قوي. إذ كانت البلاد حتى القرن IV هــ/ X م جد متمدنة، خاصة في طرفيها الشرقي والغربي. ومنذ ذلك الوقت، وجـدت بلاد المغرب نفـسها منغلقة على ذاتها، داخل دائرة من الفوضى والإخفاق، أي في وضعية سادت حتى بداية الفترة الاستعمارية، فتحدد مصيرها بشكل كبير بتطورها الذي كان معاكسا لتطور أوربا، كطابع غائر كما أشرنا إلـى ذلك سابقا.

---

[30] إن العدل الذي يجيزه الحديث النبوي كان ممارسة سارية بين الناس بمـوازاة بعـض المخدرات المجهضة وتجدر الإشارة أن لهذه المخدرات مكانتها في معالجة الأمراض كما جاء في **الرسالة اللوحية** لا بن سينا. ط: م.سوسي، تونس، 1975، صص 83-85.